الفصل الثاني

وحيداً، في الغربة

هامبورغ

في صيف عام 1992، وصل محمد الأمير إلى بيت يقع شمال هامبورغ، يملكه مدرسان متقدمان في العمر تعرف عليهما أبوه أثناء وجودهما في القاهرة. وسكن محمد في غرفة زائدة في البيت الصغير مجاناً. وعمل الزوجان منذ مدة في برامج مبادلة الطلاب بين مصر وألمانيا. وكانا مبتهجين لمساعدة المعماري الشاب. وصل عطا ومعه حقيبة واحدة، ولكنه كان، من جوانب أخرى، يحمل معه أثقالاً أخرى [من الأفكار والمفاهيم والمعتقدات] أكثر من أي شخص آخر عرفته تلك الأسرة المضيفة[1].

كانت أسرة محمد الأمير بحسب المعايير المصرية، أسرة غير متدينة. إلا أن المعايير المصرية لم تؤخذ من ألمانيا، فحتى لو بقي الأمير محتفظاً بمعتقدات أسرته غير المتدينة والتزاماتها الدينية المتساهلة ونقلها معه إلى شمال أوروبا، فإنه يكون بالمقارنة أكثر تديناً من معظم أقرانه الألمان. ولكنه بدلاً من ذلك، وكما يحدث لكثير من الشباب عندما يسافرون إلى الخارج، ازدادت حدة معتقداته وممارساته الدينية. فكان يحافظ على أداء الصلوات الخمس في المسجد متى كان ذلك ممكناً. وبدأ بالالتزام بالأكل الحلال – لا يأكل الخنزير ولا يشرب الكحول. وتجنب محمد الملذات التي ينساق وراءها الطلاب في العادة. كان قليل الخلطة بالناس، لم يدخل قط النوادي ولم يحضر

obeikan.com

المناسبات الرياضية، وكان لا يتساهل مع إظهار الأنثى لمفاتنها الجنسية، وكانت حتى البلوزة بلا أكمام تثير عبوسه.

تعتبر هامبورغ مدينة غير مكبوتة جنسياً؛ فصناعة الجنس من مسارح ونواد ليلية ودعارة ودور نشر المطبوعات الجنسية، هي صناعة رائجة. وبالنسبة لشخص مثل محمد الذي كان يخرج من الغرفة حين تظهر على شاشة التلفاز مشاهد الرقص الشرقي، فإن هذا الوجه الفظ والمنحل من هامبورغ شكل مقدمة نابية إلى العالم الغربي.

ويعكس هذا المظهر العام من الإباحية الموقف المحلي بأن هناك أشياء أكثر أهمية ينبغي أن تشغل البال. وترسخ هذا الاعتقاد بعد كفاح مرير شهدته المدينة. فقد كانت هامبورغ، وعلى مر الزمان، مدينة ذات شكيمة وتحمل لدرجة تبعث على الإعجاب. وتعرضت لموجات من الطاعون والكوليرا خلال العصور الوسطى. كما التهمت النيران كامل مركزها التجاري في الحريق العظيم الذي أصاب المدينة عام 1842، ثم أمطرتها طائرات الحلفاء بوابل عنيف من القنابل على مدار ثلاثة أيام كاد أن يضع المدينة في طي النسيان صيف عام 1943. وبعد كل كارثة من هذه الكوارث، كان يعاد بناؤها. وهي الآن أغنى مدينة ألمانية، ومركز النخبة الإعلامية في ألمانيا. والعلامة الوحيدة البارزة من ماضيها الصعب هو اللافتات التي توضع أمام بناياتها والتي يذكر فيها تواريخ هدمها وإعادة بنائها.

يعتبر نهر الألب بروافده المتشعبة والملاحة التجارية التي تمر عبره، السبب الأصلي لثراء المدينة بوصفها أكبر ميناء تجاري من بين تجمع المدن التجارية في العصور الوسطى والتي كانت تعرف بـ"الهانز". ويقطع نهر الألب مدينة هامبورغ الحديثة بخط مائل واصلاً إياها ببحر الشمال الذي يبعد عن المدينة 50 ميلاً شمالي غربها، ويوصلها من الجهة المقابلة بمدينة براغ مركز العمق

الأوروبي. ويبقى الميناء ذو الألف عام بسفنه التجارية الكبيرة، ورافعات الحاويات، وحقول التفريغ، جزءاً حيوياً ومهماً لازدهار المدينة. إلا أنه وكغيره من الموانى العاملة، موجود فقط في العالم البديل بالنسبة للملايين الأربعة الذين يسكنون حاضرة المدينة. فهم لا يشاهدون الميناء إلا من خلال لحظات عارضة من نوافذ القطارات أو السيارات العابرة. وقلب المدينة بالنسبة لغالبية سكانها يقع شمال الميناء. حيث تربط شبكة من القنوات بين بحيرتين رئيسيتين للمدينة بالنهر. هذه القنوات تزخر بالمطاعم والفنادق والنوادي ومحلات بيع الكتب ودور الأزياء، وتعج بسكان هامبورغ ذوي القامات الطويلة والبشرة البيضاء والملابس الأنيقة. وكباقي سكان المدن الشمالية، يشتهر السكان المحليون بالتحفظ والانعزالية. فهم يسيرون بخطى حثيثة إلى حيث يقصدون ولا يتوقفون للحديث.

ويشكل هذا الميناء أيضاً نقطة اتصال المدينة بالعالم العربي ووسط آسيا. ومازالت حركة التجارة فيه ذات شأن. فقد كانت ألمانيا تتمتع بأفضل علاقة شريك تجاري أوروبي بالعالم العربي على مدى معظم القرن الماضي. والسبب الرئيسي في ذلك هو أن ألمانيا وحدها من بين هذه القوى لم تستعمر العالم العربي. وكانت الإمبراطوريتان الألمانية والعثمانية تتلامسان وتتنافسان فيما بينهما في الجناح الجنوبي لأوروبا، إلا أنهما وبمرور الوقت استقرتا على علاقة سلمية، فيما كانت فرنسا وبريطانيا تحاربانها من أجل إحكام السيطرة على الأراضي العثمانية. وألمانيا بوصفها عدو أعداء العالم العربي، أصبحت صديقة له. واستمرت العلاقة خلال الحرب العالمية الثانية، حيث كانت المشاعر العامة في العالم العربي تتعاطف وتؤيد النصر الألماني. وبرغم أن الحرب كانت تعتبر شأناً أوروبياً، إلا أن العرب وقفوا مع القوة التي لم تستعمرهم.

وبعد الحرب، ظهرت ألمانيا قوة اقتصادية. ومن بين الذين ساهموا في تعزيز هذه القوة ملايين من العمال الأجانب ومن بينهم، وللمرة الأولى في تاريخ ألمانيا، سكان مسلمون، يشكل الأتراك والأكراد غالبيتهم العظمى. وكان هناك أيضاً إيرانيون، وفلسطينيون، وفيما بعد وصل لاجئون من يوغوسلافيا وألبانيا. وأصبح الإسلام الدين الثالث في البلاد.

وبالإضافة إلى القوة الجاذبة الكبيرة للاقتصاد، وفرت ألمانيا للأجانب سهولة الاستفادة من نظامها التعليمي في الجامعات بتكاليف منخفضة. وأصبح التعليم المهني وتحديداً الهندسة طريقاً تقليدياً للتطور الاقتصادي في العالم العربي. وحرصت الجامعات الألمانية على استقطاب الطلبة الأجانب.

قدم محمد الأمير إلى ألمانيا عن طريق تأشيرة دخول سياحية، ولكن دخول الجامعة يتطلب تأشيرة دراسية ولم يكن يعلم أنه كان عليه الحصول عليها في القاهرة قبل مجيئه، ولا يمكن إصدار تلك التأشيرة في هامبورغ. وحدث أن كان الزوجان اللذان يسكن معهما محمد في زيارة إلى القاهرة للمساعدة في إجراءات قدوم مزيد من الطلاب المصريين إلى ألمانيا. وبينما هما هناك، قدما طلباً لفيزا دراسية لمحمد دون أن يخبراه بذلك كنوع من إسداء الخدمة والمعروف له. وعندما رجعا إلى هامبورغ وأخبراه بأنهما قد أنجزا له طلب تأشيرة الدراسة وأراحاه من عناء تلك المهمة، أبدى محمد مشاعر الضيق والانزعاج، وكان رده على ما قدماه من خدمة بالقول: "إنني رجل بالغ عاقل الآن؛ وأستطيع أن أتولى هذا الأمر بنفسي".

وتقول الأسرة المضيفة "لقد كان يردد مثل هذا الكلام كثيراً"، "إنني في الغربة الآن، ولست صغيراً، أستطيع أن أقرر بنفسي ما أريد".

obeikan.com

وقد بدا من الحماقة رفض تلك المساعدة، "إلا أنه هكذا كان يتصرف"، هذا ما تقوله زوجة صاحب المنزل(2).

كان الزوجان المضيفان يسافران إلى مصر كثيراً؛ ويقدران الفروق والاختلافات الثقافية لدى محمد. وكانت المرأة معجبة بجدّه وعزيمته، واصفة إياه بالحديدي. ومن حين لآخر، كان يجري بينهما نقاش في المسائل الدينية. وكانت الزوجة على اطلاع وفهم جيد بالعهد القديم (التوراة)، وحاولت أن تقنع محمداً أن جذور الإسلام والمسيحية متصلة ببعضها وأن هذه الديانات بواقع الحال تتوجه بالعبادة إلى رب واحد. وكان محمد يصغي إلى الحديث، ويرد قائلاً، نعم، إلا أن ما جاء به القرآن هو الصحيح، والأهم من ذلك كله، أنه هو الحقيقة الوحيدة. وتضيف المرأة بأنهما كانا يتجادلان إلى أن تغادر الغرفة مشمئزة من انغلاق عقله قبل نفاد صبرها وتفجر غضبها.

وكان لمحمد بعض الأصدقاء. وبإمكانه أن يكون أنيساً ومؤدباً مع الناس. ولكنه لم يكن أبداً ودوداً. وشعرت مضيفته "بوجود جدار عازل بينه وبين الأسرة دائماً". وأضافت بأنها أصبحت تشعر بعدم الراحة في بيتها بسببه. فقد كان محمد يتضايق عندما كانت تأتي ابنتها الكبيرة غير المتزوجة لزيارتها وتحضر معها ابنتها الصغيرة. كان الأمر غريباً، كما تذكر صاحبة البيت، فقد كان محمد يلاعب البنت الصغيرة، ومن الواضح أنه كان يحب ذلك، "لقد كان حراً، وهي المرة الوحيدة التي رأيته فيها حراً طليقاً هكذا"، إلا أنه كان ينتقد الأم لعدم وجود زوج لها مما يفهم منه ضمنياً الانفلات الخلقي الذي كانت نتيجته إنجاب تلك البنت. وكما كانت حاله في مصر. إذا ظهر على شاشة التلفاز برنامج يخدش الحياء، كان محمد يغادر الغرفة. وفي ربيع 1993، وباتفاق ثنائي، انتقل محمد من البيت الصغير.

Odeikan.com

هاربورغ

لدى وصوله إلى هامبورغ، كان محمد ينوي الالتحاق ببرنامج الدراسات العليا للهندسة المعمارية في جامعة هامبورغ للعلوم التطبيقية في فصل الخريف. إلا أن الجامعة رفضت طلبه لعدم وجود شاغر في البرنامج في ذلك الفصل. استشاط والد محمد من ذلك القرار، وادعى أن الجامعة بقرارها ذاك تمارس التمييز العنصري ضد ابنه لأنه كان عربياً. وهدد الأمير برفع دعوى ضد القرار. إلا أن الجامعة تراجعت بسرعة عن قرارها، وتم قبول محمد في خريف 1992. ثم وبعد أسابيع فقط من التحاقه بالدراسة، ترك محمد البرنامج فجأة ليلتحق ببرنامج التطوير الحضري في جامعة مختلفة هي جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية (Technical University of Hamburg-Harburg) وتعرف اختصاراً (TUHH) وأخبر الأسرة التي تستضيفه بأنه تبين له بعد أن بدأ الدراسة أن برنامج العمارة لم يكن متطوراً إلى الدرجة التي كان يطمح إليها، فهو إعادة لما درسه في مرحلة البكالوريوس في القاهرة؛ ولذلك قرر الالتحاق ببرنامج التخطيط الحضري في جامعة هامبورغ - هاربورغ التقنية.

تقع الجامعة التقنية في الضواحي الصناعية من مدينة هامبورغ جنوبي نهر الألب. ويشكل نهر الألب ما يطلق عليه المخططون هنا "الحد الثقافي". وقد بنيت الجامعة التقنية جنوب ذلك الحد قبل عشرين سنة كإجراء للتطوير الاقتصادي للمنطقة الصناعية التي كانت تشهد تراجعاً اقتصادياً. وعندما التحق محمد بالجامعة، كانت ما تزال في ربيعها العاشر، وتضم خمسة آلاف طالب، ولم تكن معروفة على نطاق واسع في ذلك الوقت لكي يقصدها الطلاب الأجانب. وفي خريف 1992 كان فيها أقل من مائة طالب مصنفين على أنهم طلاب أجانب[3]. والواقع أن أكثر من نصفهم ليسوا بالأجانب إطلاقاً ولكنهم من أبناء الأسر التركية التي استقرت في ألمانيا لعدة سنوات، وأحياناً لعدة

أجيال، ولكنها لم تحصل على الجنسية الألمانية. وعليه فإن عدد الطلاب الأجانب على وجه الحقيقة كان حوالي الأربعين، وكان محمد الأمير واحداً من بين الطلبة العرب القلائل منهم.

كان برنامج التخطيط الذي يطمح محمد أن يحصل منه على درجة الماجستير مناسباً جداً له، وينسجم مع قدراته التحليلية و دقته في التفاصيل. ويقع هذا القسم في ثكنة قديمة للشرطة في بناية خشبية مستطيلة تركت كما هي بين الأبنية الزجاجية الحديثة للجامعة الجديدة. ومن حسن حظ محمد أن رئيس القسم ديتمار ماشول كان متخصصاً بالشرق الأوسط. وذكر ماشول بأنه استشعر أن محمد الأمير يشاركه مشاعره العميقة نحو المدن القديمة في الشرق الأوسط. ووصف الأمير بأنه "رقيق، وحساس، وله عينان داكنتان عميقتان، وتكاد عيناه أن تتحدثا إليك، يمكنك أن تشاهد خلالهما الذكاء، المعرفة واليقظة"[4]. ويصف أستاذ آخر هو هانز هارمز محمد الأمير بأنه "كان خجولاً جداً في البداية، ولكنه بدأ بالتفاعل، كنت أرى أنه يستمع باهتمام، وأن ما أقوله كان يؤثر فيه"، ويضيف قائلاً،" كان محمد متأثراً وقابلاً للتأثير"[5]. ويستذكر هارمز ومعه مارتن إيبرت وهو طالب درس مع الأمير في بعض مواد القسم، أن الأمير لم يكن يقفز على النقاش، بل كان يجلس ويستمع، وأحياناً لا يتفوه بكلمة واحدة، ثم يأتي لاحقاً بعد أسبوع بتعليق حول الموضوع. ويضيف إيبرت بأن الأمير لم يكن يختلف كثيراً خارج فصول الدراسة، كان حذراً بشأن ما يقول – يزن كلامه، ولم يكن سريع الانفعال. "لا أظن أنه يمكنك أن تدخل في شجار معه" على حد قول إيبرت[6]. ويقول هارمت كايزر، وهو أيضاً من زملاء محمد في الدراسة، كان من الصعب أن تجذب الأمير إلى نقاش سياسي داخل الدرس، حتى وإن كان للسياسة علاقة مباشرة بموضوع النقاش. "لم يكن شخصاً يتصرف وكأنه يريد أن يغير العالم، على خلاف كثير من الطلاب في المجموعة"[7].

وعندما يبدي الطلاب تذمرهم - كما هي عادتهم في كل مكان حول العالم - من خصوصيات الدراسة، كان محمد الأمير يشارك في النقد فقط إذا كان يرى أن الأستاذ لم يحضر الموضوع بشكل جيد أو إذا لم يكن لديه إلمام ودراية بالموضوع الذي يدرسه. وبالنسبة للأساتذة المتمكنين من تخصصاتهم فكان يظهر لهم قدراً كبيراً من الاحترام يصل إلى درجة التبجيل والانبهار.

وعلى العكس من ذلك، كان محمد يظهر قليلاً من الاحترام لرفاقه في السكن الجامعي. وتكررت معه الصعوبات التي واجهها في المنزل الصغير الذي سكنه مع الأسرة الألمانية في هامبورغ عند بداية قدومه من مصر. انتقل محمد إلى مسكن تابع للجامعة يسمى سنترماشوز. وتضم كل شقة من هذه البناية السكنية غرفتين للنوم ومطبخ وحمام. سكن محمد في الطابق الثالث لسنترماشوز من عام 1993 وحتى عام 1998. وسكن معه في الشقة شخصان على التتابع. وفي النهاية، بلغت مضايقاته لهما حداً لم يطق أي منهما السكنى معه في الشقة. كان نادراً ما يغسل أطباق الأكل حتى عندما يستعيرها هو منهما لكي يضع فيها طعامة. كما أنه لم يكن ينظف الحمام، وعندما يطلب منه ذلك، كان ينظفه مرة واحدة ويتركه لعدة شهور بعدها. وكان يترك طعامه مكشوفاً داخل الثلاجة لعدة أسابيع مما يؤثر على طعم الأشياء الأخرى الموجودة في الثلاجة. وكان المطبخ المشترك صغيراً جداً تتوسطه طاولة خشبية تطل على الشارع. ويعتبر المكان مناسباً لشرب الشاي أو القهوة في الصباح. إلا أن محمداً كان يدخل الشقة ويخرج منها دون أن يعير اهتمامه لأي شخص موجود فيها.

تنامت مشاعر النفور من محمد لدى رفاقه في السكن أكثر من نفورهم من تصرفاته[8]، وكان هذان الشخصان يختلفان عن بعضهما اختلافاً جذرياً. فقد كان الأول نشيطاً رشيق الحركة، ابنا لأبوين مهاجرين من آسيا. أما الآخر

فكان ألمانياً هادئاً. اختارته إدارة السكن عقب شكوى رفيقه الأول على أمل أن ينسجم ويتوافق مع محمد في الشقة[9]. إلا أن ذلك لم يكن مجدياً. فقد اشتكى كلاهما من طباعه الشخصية: عزلته الكاملة التي تصل إلى حد العدوانية. وعلى الرغم من كونه قليل البنية - كان طوله 5 أقدام و 7 بوصات - نحيل الجسم، كان حضوره ثقيلاً ومنذراً بالشر. فقد كان متلكئاً نوعاً ما، جامداً، ومنطوياً على نفسه. وكانت تقاطيع وجهه المنحدرة وحواجبه الداكنة القريبة من عينيه تعكس انطباعاً عابساً مثيراً للخوف.

حاول رفيق محمد الأول أن يليّن من تلك الشدة قليلاً بدعوته إلى مناسبات اجتماعية مع زملائه. في البداية دعاه إلى مرافقة مجموعة من أصدقائه لمشاهدة عرض لفيلم كرتوني من إنتاج ديزني بعنوان كتاب الغابة. وأثناء وجوده في صالة العرض، غضب محمد من صخب الجمهور قبل بدء عرض الفيلم، وما اعتبره محمد صخباً ورعونة من الجمهور كان في نظر رفيقه نقاشاً طبيعياً، إلا أن محمد الأمير لزم مقعده وأخذ يردد عبارة "فوضى، فوضى " بطريقة تعكس امتعاضه من الموقف. ولم يتحدث بكلمة أخرى خلال عرض الفيلم أو أثناء العودة إلى المسكن. ولما دخلا الشقة، توجه محمد إلى غرفته فوراً وأغلق الباب وراءه بحدة.

وفي مناسبة أخرى، سأل محمد الأمير صديقه إن كان لديه بعض الكتب التي تصلح للقراءة الخفيفة بالألمانية. تفاجأ رفيقه من هذا الطلب، وناوله كتاباً للهزليات بعنوان مونتي بايثون - قصص قصيرة كانت شائعة في ذلك الوقت بين طلبة الجامعات الألمانية. وتمنى صديقه أن يوفر هذا الكتاب بعض التسلية والترويح عن محمد، ولعله أن يكون مناسبة لفتح باب اهتمام مشترك بينهما. أخذ محمد الكتاب. وفي صباح اليوم التالي، وعندما ذهب رفيقه إلى المطبخ لتناول الشاي، وجد الكتاب موضوعاً على الكرسي الذي يجلس عليه في العادة

obeikan.com

حول طاولة الفطور. ولم يكن هناك أي كلمة مكتوبة أو توضيح أو حتى شكر – ولا كلمة من أي نوع. ويقول رفيقه: "كان محمد يرفض أي نوع من المتعة".

كان محمد يحمل بطاقتي ائتمان، إلا أنه قلما استخدم أياً منهما[10]. فهو لم ينفق سوى القليل من النقود على الطعام ووقتاً أقل في الأكل. وكان يتذمر من ضرورة الأكل أثناء تناوله الطعام. وفي العادة كان يأكل وحده. "لم نتشارك في الأكل مطلقاً. كنا نتشارك في الأطباق. وفي الغالب كان يستخدمها ويتركها متسخة وكنت أقوم أنا بغسلها". هذا ما يقوله رفيقه الأول في المسكن. "إنني أذكر أنني كنت جالساً حول الطاولة ذات يوم وكان محمد يقول متذمراً – هذا ممل، الأكل ممل –. ليس لأنه كان يرغب بطعام مختلف، بل كان يقصد فعل الأكل ذاته".

وفي بعض الأحيان، كان محمد يحضر وجبة مكونة من البطاطس المسلوقة بكاملها، ثم يقشرها ويهرسها ويجعلها في وعاء واحد. وكان يأكل من هذه البطاطس دون أن يسخنها، لمدة أسبوع أو أكثر تاركاً ملعقته في الوعاء بعد أن يزجه في الثلاجة.

تحتوي كل غرفة نوم في الشقة على سرير وطاولة ورف. والشيء الوحيد الذي أضافه محمد إلى الغرفة هو طاولة لجهاز عرض سينمائي (بروجكتر). فقد كان لديه كاميرا وكان يلتقط الصور للمشاريع الخاصة بدراسته. وتلك هي المحاولة الوحيدة التي عرفت عن محمد لعمل شيء مبتكر[11]. وفي كثير من الأحيان، كان يستخدم الطاولة لوضع نسخته من القرآن عليها. وكان يؤدي الصلوات الخمس، ويصوم في رمضان، ويذهب إلى المسجد متى كان ذلك ممكناً. وفي المرات التي لا يستطيع فيها الذهاب إلى المسجد، كان يصلي في غرفته، وفي عمله، وحتى في زاوية من زوايا قاعة الدرس في الجامعة. وكان دائماً يلبس الثياب ذاتها: سروال قطني، وسترة صوفية، وتحديداً سترة بنية اللون حاكتها له أمه، ومعطفاً بنياً من الجلد في أيام الشتاء.

Obeikan.com

كانت غرفته مرتبة لدرجة ما، وذلك بسبب قلة مقتنياته. وكان قليلاً ما يلبس الحذاء داخل الشقة، فقد كان يغير ملابسه سرعان ما يدخل الغرفة ويلبس شبشبه الأزرق. ويذكر رفيقه الثاني في السكن بأنه بعد مرور حوالي ثلاث سنوات على اشتراكهما في المسكن، لم يكن الاثنان يتبادلان الحديث. فقد كان محمد متشدداً للغاية لدرجة أن رفيقه في السكن قال لأصدقائه ذات يوم مازحاً بأنه يأمل ألا يكون محمد في الشقة يصنع قنبلة ليفجر بها نفسه.

ويقول: "في النهاية، كنت أحصي الأيام التي بقيت لمغادرة محمد الشقة نهائياً". وبحسب أنظمة الجامعة يسمح للطلاب الإقامة في السكن الجامعي في سنترماشوز لمدة تصل إلى أربع سنوات كحد أقصى، ولكن يمكن تمديدها إلى خمسة إذا كان الطالب على وشك التخرج. وحصل محمد على التمديد، الأمر الذي نغّص على صديقة رفيقه في السكن التي كانت تزوره كثيراً في الشقة. وكانت أكثر تأذياً من محمد؛ فقد كان يجيب عن أسئلتها بنبرة جافة، وكان لا ينظر إليها وهو يكلمها.

وتقول: "لقد كان اليوم الذي يغيب فيه محمد عن الشقة يوماً سعيداً بالنسبة لي"[12]. وكانت الفتاة مستاءة جداً من سلوكه تجاهها لدرجة أنها فكرت بالانتقام منه. فأقنعت صديقها بأن يعلق لوحة عارية من رسم الفنان ديغاس في الحمام. وكان الحمام صغيراً؛ ولا يمكن لشخص أن يدخله دون أن يلاحظ اللوحة المرسومة. لم يصدر عن محمد أي ردة فعل على تلك الخطوة الاستفزازية التحرشية. وأخيراً، وبعد مرور ثلاثة أشهر، طلب محمد من رفيقه إزالة تلك اللوحة. ثم قامت الصديقة بتعليق لوحة تظهر فيها صورة شخصية ميس بيغي الكرتونية من برنامج مابيت وهي ترتدي قميصاً للنوم يظهر مفاتنها. لم يعلق محمد على تلك الصورة بكلمة واحدة.

أبدى ديتمار ماشول، رئيس قسم التخطيط في الكلية، اهتماماً خاصاً بمحمد. وكان ماشول مستشرقاً ملتزماً، ويؤمن بأن دوره في الجامعة هو دور المدرس، ودور المشجع للتواصل الثقافي. وعندما اختار محمد موضوعاً لرسالة الماجستير - المحافظة على المدن الأثرية في الشرق الأوسط - أبدى ماشول ابتهاجه بهذا الاختيار.

ويقول ماشول: "عندما يأتي الطلبة المسلمون إلى عالمنا، يكون لديهم مشاكل في التعامل مع الثقافات الأخرى. فهم يحاولون إما الابتعاد أكثر فأكثر عن الثقافة الغربية، أو الأخذ من هذا وذاك. وبالنسبة لمحمد، كنت منبهراً منه بعض الشيء، وأجد لزاماً علي القول، لأنه شخص لم يتغير، وحاول أن يبقى كما كان، حاول أن يتعلم، ويبقى كما هو. وكنت أعتقد أن هذا الشاب لو عاد إلى وطنه الأم، فسيكون قادراً على التعامل مع شخص أصولي، ويمكنه أن يعمل مع الأشخاص المتدينين لأنهم سيصدقونه"[(13)].

كان ماشول، وعلى مدى عدة سنوات، يقوم بمشروع بحث شمال سوريا، حيث كان ينقب في آثار مدينة أثرية قرب حلب. وفي عام 1994 قام بدعوة محمد لزيارة الموقع واختيار حلب كموقع عملي لأهداف رسالته. وكان محمد قد أعد نفسه لرحلة استكشافية في الصيف مع مجموعة من الطلبة في اسطنبول.

ويقول ماشول: "قلت له، - محمد، حاول أن تأتي إلى سوريا؛ هناك رحلات مباشرة بالحافلة من تركيا إلى حلب - فاستجاب لطلبي وحضر إلى حلب في شهر أغسطس/ آب، ووصل في الصباح الباكر بعد أن أمضى ثلاثة أيام في الرحلة"، وأضاف، بأن محمداً كان منهكاً ورثّاً جراء السفر لدرجة أنني لم أملك سوى أن أشعر بالأسى على الرجل.

أمضى محمد بضعة أيام مع ماشول في موقع التنقيب، ثم توجه إلى حلب، وهي من أقدم المدن الأثرية التي ما زالت مأهولة بالسكان في العالم. وفي

العالم النامي، وفي أماكن مثل حلب، لم يكن التصادم بين القديم والجديد نظرياً. بل إنك تراه كل يوم بمجرد أن تنظر إلى الأحياء المبنية من حجارة الطين، مكتظة، مبعثرة لم يطرأ عليها تغيير منذ عهد النبي. ويمكنك أن تتتبع الطرق التي سلكها تيمورلنك وهو متوجه لسلب المدينة في القرن الرابع عشر، على طول خطوط ملتوية عبر التلال والهضاب، فتفقد نفسك كلياً في رحلة في العالم القديم، ثم ما تلبث أن تظهر أمامك فجأة بنايات سكنية من الإسمنت تبدو وكأنها قد وصلت للتو من موسكو أو من المريخ، أو أمام مركز صغير للتسوق ذي ثلاثة أدوار قدم لتوه من سانت خوزيه(*).

زار محمد الأمير حياً يسمى ميدان المدية. وهذا الحي عانى هو الآخر من التحسينات الحديثة. فقد قامت الحكومة في السبعينيات بشق طرق جديدة واسعة، وعملت على تسهيل الوصول إلى المدينة القديمة والتنقل فيها. وقامت ورشات الأشغال العامة بشق جزء من الطريق خلال قلب المدينة وهدم ما يلزم هدمه لشق الطريق بغض النظر عن قيمته التاريخية. وتوجوا إنجاز ذلك المشروع بتشييد مبنى صغير جانب الطريق لبيع التحف التذكارية للسياح.

يقول رازان عبدالوهاب، المهندس السوري الذي عمل في مشروع المدية: "كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي أثار حفيظة محمد وأثر فيه. لقد كان غاضباً جداً جراء هدم معالم التراث القديم"[14].

وعندما عاد محمد الأمير إلى هامبورغ، أبلغ ماشول بأنه سيجعل من حلب محور بحثه في رسالة الماجستير. وقام محمد برفقة زميل آخر له اسمه فولكر هوث بزيارة ثانية إلى سوريا نهاية العام لأهداف البحث. كان محمد منتعشاً بعمله بحسب قول هوث. وفي رحلة جانبية إلى دمشق العاصمة السورية، ذهب

(*) مدينة في ولاية كاليفورنيا الأمريكية تقع جنوب خليج سان فرانسيسكو.

هوث برفقة محمد لزيارة أحد المساجد القديمة. وكان هوث بروتستانتياً متديناً، وغالباً ما كان الاثنان يتحدثان حول الدين، إلا أن هوث لم يسبق له أن شاهد محمداً في أوضاع تعبدية. وأثناء وجودهما في المسجد، تفاجأ هوث عندما شاهد محمداً وهو يؤم المصلين، مبدياً ثقة بنفسه ولباقة في سلوكه. كان ذلك المشهد شيئاً جديداً بالنسبة لهوث الذي كان عهده بمحمد في هامبورغ بأنه الشخص العبوس والانطوائي. أما هنا فهو شخص مختلف تماماً – كان طليقاً، أكثر حديثاً، نشيطاً، وفي بعض الأوقات مرحاً. وبدا وكأنه كان في سجن وتحرر منه، "كالسمكة التي أعيدت إلى الماء"، بحسب وصف هوث[15]. حتى إنه بادر بمغازلة فتاة تعرف عليها في حلب، وهي بدورها بادلته المداعبة واصفة إياه بفرعون[16]. وفيما بعد أخبر محمد والده عن جاذبيته نحو تلك الفتاة، إلا أنه قال بأنه لا يمكنه مواصلة التفكير بها لأنها كانت جريئة جداً، وهذه ليست من الصفات الإسلامية في المرأة[17].

كانت الأمور تسير في صالح الأمير. فبعد أن أرغمه والده على الذهاب إلى ألمانيا لمتابعة دراسته، في بيئة غريبة عنه، وجد نفسه في نظام مؤسس الأركان استمتع به، ووجد عملاً انخرط فيه بمتعة وتحد؛ فازدهرت حياته، ونال قدراً كبيراً من القبول والتشجيع من أساتذته لم يجد مثيلاً له عندما كان يدرس في القاهرة. فهو لم يسبق له أن تحدث عن طموحاته وعن مستقبله المهني. أما الآن فهو يتحدث عن المستقبل الذي وجده، وعن رغبته في العودة إلى مصر كما يعود "العربي إلى بلاد العرب"[18] لكي يساعد في بناء أحياء سكنية يعيش فيها الناس حياة فضلى.

القاهرة القديمة

في صيف 1995، حصل محمد الأمير وهوث على هبة من جمعية كارل دويزبيرغ، وهي مركز دراسات يهتم بتشجيع إعادة التطوير والمحافظة على

التــراث. ومكنت هذه المنحــة كــلاً من مــحــمــد وهوث وطالـب ثالث هـو رالف بودنسـتـاين من الـذهـاب إلى القـاهـرة لدراسـة وتحليل الخطط التـي وضعـتـهـا الحكومة المصرية لتطوير قسم قديم من المدينة يطلق عليه المدينة الإسلامية. وهو قسم يزخر بالمعالم والآثار القديمة والمتاجر الحديثة، والعمارة من القرون الوسطى. ولا يوجد في القاهرة مكان يبرز عظمة التاريخ المصري ومكانته مثل هذا القسم الذي يحميه سور مرتفع مبني من الحجارة الكبيرة يمتد من البوابة الشمـاليـة إلى بوابة النصـر، وتتخلله المسـاجـد والكنائس وحتى معـبـد يهودي. وتتراكم طبقات التاريخ على جوانب الشوارع الملتوية والأزقة المضاءة جزئياً والتي تمتـد على طولهـا صنـاديق العـدس والمعكرون والفلفل الطازج والليـمـون بحجم البلوط، والزيتون الأسـود بحجم كرات التنس.

ارتعب المعماريون الثلاثة مما شاهدوه. فقد كانت خطط الحكومة "لترميم" المنطقة تقضي بترحيل كثير من سكانها الأصليين، وإجلاء باعة البصل والثوم، وإصلاح البنايات القديمة، وجلب فرق مسـرحيـة لتمثيل أدوار الناس الذين رحّلتهم. يقع الجزء القديم غرب مدينة الأموات الآخذة بالتوسع، وهي المقبرة الرئيسية للقاهرة، ويرقد فيها موتى المدينة عبر القرون، ويعيش فيها كذلك آلاف من السكان حول الأقبية والأضرحة. وكان مهندسو المشروع يعملون على ترحيل سكان المقبرة الأحياء منهم والأموات. وقامت الجرافات بشق ممرات على طول طرف مدينة الأموات بعمق متر من السطح مزيلة معها الأقبية والرفات الموجود تحتها. وكانت تلك هي فكرتهم عن "ترميم" المقبرة ذات الألف عام.

ناقش المعماريون الثلاثة العيوب الكبيرة في المشروع، وحاولوا نقل قلقهم إلى المسـؤولين والقـائمين على المشـروع. ويصف بودينسـتـاين مـا حـدث: "دار نقاش مهم بيننا وبين البلدية. إلا أنهم لم يتفهموا وجهة نظرنا. هم يريدون إكمال عملهم، وإقامة مناطق سياحية يلبس فيها الناس الأزياء الشعبية. وكانوا

يعتقدون أن تلك فكرة ممتازة، ولا يتخيلون وجود سبب لاعتراضنا عليها"[19]. وكانت تلك المناسبة أول احتكاك مهني متواصل لمحمد الأمير مع البيروقراطية المصرية، وكانت مصدر إزعاج كبير له، بحسب وصف بودينستاين. "كان محمد حاداً جداً في انتقاده لإدارة التخطيط، وبخاصة المحسوبية. وكان يحاول الحصول على بعض المعلومات حول حصوله على وظيفة بعد إنهاء دراسته، وواجه صعوبة في العثور على أي شيء. فهو لم يكن داخل الشبكة، حيث تنتقل الوظائف من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق، والحلفاء السياسيين. كان محمد مثالياً جداً، إنسانياً؛ ولديه مثل اجتماعية يريد تحقيقها".

لم تكن شكوى الأمير من صعوبة تأمين وظيفة محترمة خاصة به. فالنظام الطموح والمجاني للتعليم العالي في مصر يرفد من الخريجين كل عام أكثر بكثير مما يمكن للاقتصاد المصري أن يستوعبه. وتخرج جامعة القاهرة التي درس فيها أكثر من 1000 مهندس كل عام. وكانت المحصلة النهائية هي كلما ازداد تحصيلك العملي، قلت فرص حصولك على وظيفة مناسبة. وفي إحدى الأعوام تبين أن فرص البطالة في صفوف الشباب المصري من حملة الشهادة الجامعية أكبر بمعدل 32 ضعفاً مما هي عليه بين الفلاحين الأميين"[20].

ويقول بودينستاين بأن انتقاد الأمير للحكومة توسع وازداد مع المضي قدماً بتنفيذ المشروع. وما أقلق محمد هو أن مشروع التطوير سيعمل على تحويل المدينة القديمة إلى ديزني لاند إسلامية. وهذا التأثير الغربي ناتج عن تملق حسني مبارك وسعيه الشديد إلى كسب ود الولايات المتحدة. وشعر بودينستاين أن ما أهمّ محمد كان أكثر من مجرد مشروع التطوير: "كان هناك أشياء كثيرة ربما ساهمت مجتمعة عبر السنين وتسببت في مشاعر المرارة لديه. ولا أعتقد أن هذه الأسباب كانت دينية. لقد ساهم الدين في تقديم المفردات، وليس القضية. فالقضية كانت سياسية".

Obeikan.com

استمرت دراسة المشروع خمسة أسابيع. وبعد إتمامها، عاد هوث وبودينستاين إلى هامبورغ، وبقي محمد في القاهرة ليقضي بعض الوقت مع عائلته التي انتقلت من عابدين غرب النهر إلى الجيزة. ذهب محمد لزيارة الحي القديم الذي كان يسكنه. وطلب من جاره القديم الميكانيكي خميس فحص سيارة الفيات القديمة التي كانت معه. وقال خميس بأنهما تحدثا عن الأيام السالفة بينما كان يتفقد السيارة. وفي أثناء الحديث نودي لصلاة العصر، فاستأذن محمد للذهاب لأداء الصلاة. وكانت تلك المرة الأولى التي شاهد فيها خميس أحداً من أسرة الأمير يذهب إلى المسجد.

أصبح الدين محور اهتمام رئيسي في حياة محمد. وبتشجيع من والده، وروابطه بشركة الطيران المصرية، ودعمه المالي، ذهب محمد إلى الحج في ذلك العام إلى مكة في المملكة العربية السعودية. ويعتبر الحج تجربة مهمة ومؤثرة في حياة المسلم. ويتحتم على كل مؤمن قادر أن يقوم بهذه الرحلة مرة واحدة على الأقل في حياته. ومن باب الضرورة، عملت الحكومة السعودية على تحديد أعداد تصاريح الحج التي تصدرها كل عام خوفاً من اكتساح الحجاج للأماكن المقدسة. وليس من السهل الحصول على هذه التصاريح لشدة الطلب، وكان من الحظوة أن يتمكن شخص شاب من الذهاب إلى الحج في عمر محمد الذي كان وقتها 27 عاماً.

عندما عاد محمد في شتاء ذلك العام إلى هاربورغ، لاحظ هوث أن محمداً أصبح أكثر هدوءاً، وأكثر انطواءً، وأكثر اندفاعاً في ممارساته الدينية[21]. ولاحظ جون صادق، وهو زميل دراسة وعمل مع محمد بدوام جزئي، ذات الشيء على محمد[22]. وذكر محمد لهوث بأنه يريد في النهاية أن يعود إلى مصر ليعمل كمخطط إلا أنه محبط من الوضع السياسي الذي يعتبر الأصولية الإسلامية خطراً على الحكومة. ويقول هوث: "كان محمد يخشى أن يُجرّم بسبب معتقداته الدينية".

لم يكن لمحمد كثير من المعارف الألمان، ولا واحداً ممن يمكن اعتباره صديقاً مقرباً. ومن أسباب ذلك عزلته وانطوائيته. ومن الأسباب الأخرى ضيق مجال اهتماماته. فقد كان وإلى حد بعيد شخصاً حازماً، منضبطاً، سلبياً. لم يملك أي كتاب، لا يحب الأكل، ولا يستمع إلى الموسيقى. والفيلم الوحيد الذي شاهده محمد كان الفيلم الذي جره إليه رفيقه الأول في السكن في هامبورغ والذي بالطبع لم يعجب محمد. وليس بإمكانك أن تستأنس برفقته إلا إذا كنت تريد أن تتحدث عن الإسلام، أو القاهرة، أو تخطيط المدن، وهي ليست من المواضيع التي من شأنها أن تولد مشاعر الصداقة لدى فئات الألمان الذين يطلق عليهم جيل الغولف (نسبة إلى سيارة الفولكس واغن وليس رياضة الغولف) وهو الجيل المعروف عنه بأنه الأكثر مادية في التاريخ الألماني. وكانت ثقافة الطلاب الألمان التي عاش فيها محمد مشبعة بالبيرة، وتهتم بمنافسات كرة القدم أكثر من اهتمامها بالدين أو السياسة.

في سنواته الأولى في هامبورغ، حصل محمد على وظيفة بدوام جزئي لدى مكتب تخطيط مدني يسمى بلانكونتر. ويقول جوغ لوين[23] أحد الشركاء في المكتب، كان محمد موظفاً ممتازاً. وتصفه هيلغا ريك وهي شريك آخر في المكتب، بأنه كان يراعي أدق التفاصيل دون أن يعي الصورة الأكبر[24]. ويقول لوين: "أعتقد أنه جسد فكرة الرسم، وكأني به يقول: أنا الرسام، أنا أرسم".

كان محمد يذهب لمعاينة موقع المشروع ليكوِّن فكرة أفضل عما سيرسمه، وهو أمر يتعدى ما هو مطلوب منه، أو ما يفعله الآخرون. يقع مكتب بلانكونتر في أرقى أحياء هامبورغ، وتحيط به مطاعم مشهورة، ومسرح فني. لم تكن بيئة العمل في المكتب رسمية جداً، بل كان له طابع خاص بمسايرة التيار الدارج، كبقية الشركات الصغيرة من هذا النوع. ويفتخر المكتب بالمحافظة على علاقة متساوية بين الموظفين ورؤسائهم، وبيئة عمل مريحة وودية. وكان أبعد

Obeikan.com

ما يكون عن احتقار محمد لأنه كان عربياً، بل على العكس، كان موظفو المكتب فخورين بشموليتهم، ويستغربون من رفض محمد لها. وعلى الرغم من الاحترام والمحبة التي أوليت له في العمل، إلا أنه لم يندمج في أسرة بلانكونتر. وفي كل مرة توجه إليه الدعوة للمشاركة في رحلات الأعياد، كان محمد يرفض المشاركة في أي منها. وكان يرفض دعوات المشاركة في تناول الغداء التي يوجهها إليه زملاؤه في العمل. لم يكن نابياً في تعامله، بل كان يرفض كل ما يوجه إليه من دعوات التواصل الاجتماعي مع زملائه. كان يعمل ولا يبرح طاولة الرسم، وعندما يحين وقت الصلاة كان يصلي جوارها. كان محمد ملائماً إلى حد بعيد كطالب في الدراسات العليا - يحترم السلطة كثيراً. كان يعمل ما يطلب منه، بحسب وصف لوين، وينجز عمله بنفسه على نحو غير عادي. وعلى الرغم من أنه معماري متمرن وعلى وشك أن يصبح مخططاً مدنياً، إلا أنه وخلال طيلة عمله في المكتب التي دامت أربعة أعوام، لم يبد رأيه ولو لمرة واحدة بالمخططات التي يطلب منه رسمها. كان يكلف برسم الخرائط؛ فكان يرسم الخرائط.

Obeikan.com